ISSN 1605 – 427X

مجلة العلوم والتقانة

خطأ مطبعي
هذا هو المجلد 11 (1) 2010م

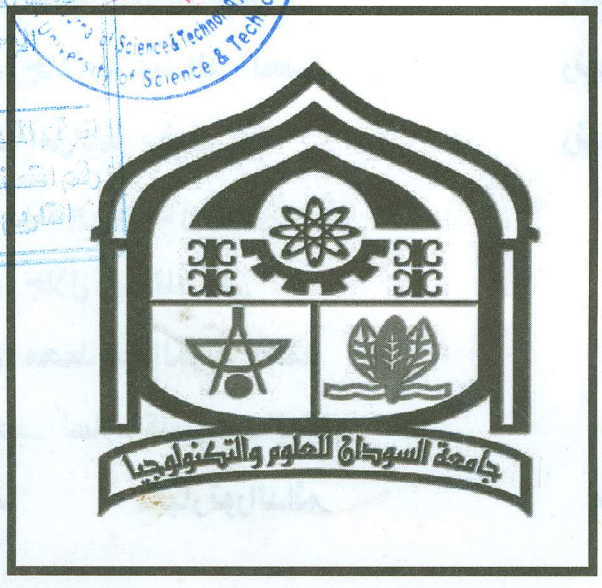

جامعة السودان للعلوم و التكنولوجيا
المكتبة المركزية للمكتبات
قسم الفهرسة
التصنيف:
الرقم:
التاريخ:

مجلة علمية محكّمة

تصدرها : جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا

http://jst.sustech.edu/

مجلة العلوم والتقانة ـــ

مجلد11(1)2009م

اللون: مفاهيمه وأثره في السلام

علي محمد عثمان محجوب

قسم التصميم الإيضاحي، كلية الفنون الجميلة والتطبيقية

الملخص:

تعرف الدراسة باللون علمياً ونفسياً وتشكيلياً واجتماعياً، كما تستعرض استخداماته والمفاهيم المتعلقة به في المجتمع، خصوصا تلك المتعلقة باللونين الأبيض والأسود، موضحة دوافع نشأتها وتطورها ووسائل انتقالها من جيل لآخر عبر القرون.

كذلك توضح الدراسة الآثار الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية والسياسية المترتبة على تلك المفاهيم خصوصا الاستعمار الأوروبي لأفريقيا في القرن التاسع عشر من استغلال لتلك المفاهيم لتأصيل وتقنين وترسيخ مفهوم التفرقة العنصرية وأثرها على قدرة الفرد على الابتكار.

تستعرض الدراسة نتائج البحوث العلمية المعاصرة ونفيها لتلك المفاهيم كما تقترح السبل لإزالتها داعمة توصياتها بنموذج سوداني حقيقي.

الكلمات المفتاحية:

اللون ، السلام ، المفاهيم ، الرق

Abstract:

Colour has been scientifically, psychologically, artistically and socially defined. Concepts concerning different colours, particularly Black and White colours have been mentioned.

Origins, development, transmission means and objectives have been traced. Role of such concepts on society has been tackled particularly racism and creativity. Impact of 19th century European colonization of Africa on African social, psychological, economical, cultural and political aspects have been discussed particularly recent research findings.

Results and recommendations to eradicate both negative concepts and their consequences have been suggested verified by a genuine example from Sudan.

المقدمة :

تطرح هذه الورقة مسألة اللون والمفاهيم المتعلقة به وذلك عبر محورين:

- التعريف باللون والمفاهيم المرتبطة به في المجتمعات المختلفة خصوصاً مفهوم اللونين الأبيض والأسود (أو الأسود والأبيض) وعلاقتهما بالألوان الأخرى متناولة نشأة تلك المفاهيم وتطورها عبر الزمان والمكان وانعكاساتها على السلوك الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لتلك المجتمعات خصوصاً المجتمع السوداني وبالتركيز على شماله وذلك استناداً على حقيقة:

- أن اللون هو أحد مكونات التصميم عموماً وخصوصاً على التصميم التقليدي (الشعبي) الذي هو أحد مقومات الفنون التقليدية.
- أن الفنون التقليدية ليست فنوناً للمتعة والترف الفكري بقدر ما هي ضرورة عملية تساهم مساهمة فاعلة في حياة الأفراد اليومية العامة، لذا فهي تمثل جانباً من تاريخ الجماعات والشعوب وتراثها الثقافي وتنبت من اجتماعيتها وأصالتها وارتباطها العضوي بفهم العالم والحياة وتدخل ضمن مفردات البعد الثقافي بمكوناته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والطبيعية وأن فاعليتها تكمن في ضرورتها المطلقة ومثلها العليا وتأثيرها الاجتماعي وما لذلك من آثار ممتدة في الحياة المتطورة بناءاً على حقيقة الترابط بين الأفكار والأشياء والأحداث.

- إن التصميم التقليدي بما في ذلك اللون هو الظاهرة المادية التي يمكننا عن طريقتها ليس فقط قياس وحساب معارف الشعوب وقدرتها على الابتكار والإبداع وإنما أيضاً الكشف عن عالمهم الداخلي المغلق أمامنا إلى حد كبير ومعرفة كيف يفكر الناس لأن القدرة على الابتكار والإبداع قيمة لا يمكن قياسها أو حسابها بوسائل القياس والحساب التقليدي وإنما تدرك بظواهرها وانعكاسات تلك الظواهر على مجتمعاتها لذا فهي المرجعية والمعيار اللذين يمكن عن طريقهما قياس عملية السلوك والتغيير الاجتماعي الدائمة والمستمرة وتطور ظروف الحياة وتغير مفاهيم واهتمامات الناس الاجتماعية حيث تعكس تلك التصميمات التطور الحضاري والتغيرات المصاحبة لشروط الحياة الاجتماعية واهتمامات

الإنسان وقيمه ومثله كما توضح تلاؤمه في كل مرحلة من مراحل تطـوره الاجتمـاعي لارتباطها الوثيق بالمجتمع.

- فرضية وجود علاقة بين اللون والمفاهيم المرتبطة به خصوصاً اللونين الأسود والأبيض وعلاقتهما بالسلام في العالم عموماً وفي السودان خصوصاً.

المحور الأول: التعريف باللون ومفاهيمه:

اللون علمياً: هو ظاهرة مرئية فقط تتضمنها عناصر تكوين الأشياء ويمكن بواسطته تعريف الأشياء والتمييز بين المتشابهات والتعبير والتفسير والتقويم والتحديد والتخطيط والتأكيد لذا فهو قوة فعلية مؤثرة. طبيعياً تنتج كل الألوان عند تحليل الضوء الأبيض (افتراضاً) كضوء الشمس عبر الموشور الزجاجي[1] وإن تلك الألوان موزونة وممتزجة طبيعياً إلى درجة جعلت ناتجها عديم اللون إلا أنه يمكن إدراك وجودها عبر الطريقة سالفة الذكر.

اللون نفسياً: من الثابت (علمياً أيضاً) أن للألوان قدرة على إثارة المشاعر والعواطف ولهذا السبب صارت الألوان إحدى وسائل التعبير عن الدواخل عند التشكيليين كما يهتم بها الأطباء النفسانيين إلا أنه من ناحية أخرى ثابت أيضاً أن هذه المشاعر والعواطف تختلف من شخص لآخر ومن زمان لآخر ومن مكان لآخر ومن مجتمع لآخر ومن المؤكد أنه يكاد ينعدم بيننا من ليس له لون مفضل إلا أنه من المؤكد أيضاً أن هذا اللون المفضل يختلف باختلاف الموضوع المطلوب فعلى سبيل المثال لا الحصر أن اللون المفضل لشخص ما لاختيار زوجة يختلف عن اللون المفضل لنفس الشخص عند اختياره أثاثاً أو ملابس.

لهذه الأسباب صار من الثابت أنه ليس هناك ثوابت لونية أو ألوان قياسية (Standard) يؤخذ بها في كل زمان ومكان.[2] كذلك من الثابت إبداعياً وعلمياً أيضاً أنه ليس هناك لون أبيض قياسي واحد كما أنه ليس هناك لون أسود كامل أو أخضر واحد أو أحمر واحد وغير ذلك من الألوان.[3]

اللون اجتماعياً: يفيدنا كل من السجلين الاثاري والتاريخي أن للألوان المختلفة مفاهيم اجتماعية تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر تتراوح بين التعبير واقعياً ورمزياً وتجريدياً سلباً وإيجاباً وأن بعض هذه المفاهيم قد اجتازت اختبار الزمن وظلت تنتقل من جيل لآخر حتى وصلتنا اليوم

خصوصاً المفاهيم المتباينة للونين الأسود والأبيض إلى درجة جعلت منهما قطبين متنافرين حيناً حيث لم تحظ أي ألوان أخرى بمثلما حظي به اللونين الأسود والأبيض من مفاهيم ترتبت عليها آثار اجتماعية سلباً وإيجاباً.[4]

اللون الأسود تاريخياً: إن المتتبع لنشأة وتطور المفاهيم المرتبطة بالألوان عموماً وبصورة أخص اللون الأسود تاريخياً يجد أن لها مفاهيم ظلت تختلف من زمان لآخر ومن مكان لآخر ومن مجال لآخر حيث لا يختلف اثنان ارتباطه بالسكون والسكينة والتفكير والتبصر العميق فمن المألوف أننا نغمض أعيننا لتحقيق ما ورد، ذلك على سبيل المثال لا الحصر. من ناحية أخرى لا يختلف اثنان أيضاً ان ما من لون لحقت أو الحق به كل الصفات السالبة مثلما حظي به اللون الأسود، حيث نجد أن مفهوم اللون الأسود في كل أنحاء العالم تقريباً ومنذ القرون الوسطى قد ارتبط بالشر دائماً حيث ارتبط بتمثيل الشيطان وكل الأشرار من بشر وحيوان وطير باللون الأسود كما ارتبط بالحزن ويدلنا على ما ورد أعلاه ما يتردد في التراث الشفاهي وغيره من عبارات مثل السحر الأسود واليوم الأسود والقلب الأسود والقوائم السوداء والنية السوداء والقرش الأبيض لليوم الأسود. وغير ذلك. إن هذه المفاهيم ظلت تنتقل تاريخياً من جيل لآخر حتى وصلتنا اليوم عبر وسائل التنشئة الاجتماعية التقليدية والحديثة المختلفة.

يفيدنا السجل الاثاري والتاريخ المكتوب أن نشأة وتطور هذه المفاهيم السلبية عن اللون الأسود ترجع لأسباب متعددة توردها الدراسة في ترتيبها التاريخي المتوافق مع تأثيرها الاجتماعي وفق ما يلي:

المعتقدات الروحيـــة والأديـــان:

إن أقدم ما يفيدنا عن نشأة مفهوم تدني اللون الأسود يعود للمعتقدات الروحية والأديان والمقصود بالمعتقدات الروحية هي اعتقاد الإنسان في الآلهة المختلفة قبل ظهور الأديان السماوية حيث نجدها في عادة الدفن الجماعي للعبيد السود مع سادتهم كما تضمنت قوانين حمورابي في بابل ما يدل على ذلك المفهوم.[5]

أما دور الأديان، والمقصود بها الديانات السماوية، وهي ما تعرف أيضاً بالديانات السامية (نسبة إلى الجنس السامي)[6] وهي وفق أسبقية ظهورها: اليهودية والمسيحية ثم الإسلام، فقد

مجلة العلوم والتقانة ـــ

عند مقارنة ما ورد أعلاه نجد أن المولى عز وجل لم يميز في القرآن بشرا على بشر عرقيا وإنما أوضح خلقهم "شعوبا وقبائل ليتعارفوا" (وليس ليتعاركوا) كما أوضح صراحة أن أكرمهم لديه هو اتقاهم وليس أنقاهم عرقاً أياً كان ذلك العرق سامي أو حامي ابيض أو اسود. كما أيد ذلك في قوله "كنتم خير أمة أخرجت للناس"[(14)] والخطاب لأمة المسلمين أسودها وأبيضها حاميها وساميها.

أما في المسيحية فنجد أن علاقتها بمفهوم تدني اللون الأسود لم تقتصر على تأصيله فقط كما ورد عالية بل وأهم من ذلك ترسيخها ذلك المفهوم عبر تعاليمها المقدسة لتأصيلها في النفس لا يجوز التفريط بها وفق فطرتها وتقديسها للأديان مما أضفى على ذلك المفهوم شرعية مقدسة عن تلك الشرعية يقول إدوارد بلايدن (Edward Blyden) عن علاقة المسيحية بالزنوج الأفارقة (السود).

"لقد طبع في ذهن الأفارقة الذين صاروا أعضاء في الكنيسة فكرة أن واجبهم أن يستسلموا لأسيادهم البيض في كل شيء".

ولقد درست هذه المفاهيم لكل المسيحيين في الغرب خصوصاً في الولايات المتحدة وضمنت في كتب وضعت خصيصا "لوعظ العبيد" شفاهة حيث حرمت عليهم تعليم الكتابة والقراءة ويضيف بلايدن أن المسيحيين في الشمال لا ينفكون عن غرس مفهوم أن هناك معياريين للأخلاق في أذهان السود أحدهما للبيض والآخر للسود كما يقول أن طوائف البيورتان (Puritan) والهتنتوت (Hotintot) قد دربت لتعتقد أن الله قد منحهم حق استعباد الأفارقة إلى الأبد.[(15)]

ويقول بلايدن أيضاً:

"أينما وجد الزنوج في الأرض المسيحية فإن الظاهرة ليست الوداعة (Docility) ولكن الوضاعة (العبودية Servility) فأينما كان في الأرض المسيحية فهو يشغل وحتى اليوم دور العبد أو القرد أو الدمية".

ويضيف: "حتى أولئك الذين تمسحوا لم يشفع لهم ذلك من تلافي سلاسل القيود التي صاحبت الإنجيل". كما يذكر أن بعض كبار القساوسة وحتى الدنيس إدوارد كانوا ملاكاً للعبيد".[(16)]

كذلك وبالرغم من أن الرق وتجارة الرقيق مسألة ضاربة في القدم ولم يختص بها عنصر بشري واحد دون غيره إلا أنه من الثابت أن إفريقيا وإنسانها الأسود قد وقع عليهما الجزء الأكبر خصوصاً بعد اكتشاف أفريقيا في القرن الخامس عشر ولقد شهدت الفترة بين القرنين السابع عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر أكبر تجارة للرق عرفتها البشرية حيث أوضحت الدراسات أن أعداد الزنوج الذين نقلوا عبر المحيط الأطلسي لأمريكا بلغت 11–12 مليونا معظمهم في الفترة بين (1701–1850 م) ولا يشمل هذا العدد الرقيق الذين نقلوا عبر الصحراء إلى أوربا والهند وشمال أفريقيا والشرق الأدنى، ويقدر ما خسرته أفريقيا بسبب تجارة الرق يتراوح بين الأربعين مليوناً بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر.[22]

لقد قام الاسترقاق وتجارة الرق استناداً على المفاهيم لسابقة والنظريات والمفاهيم العلمية القائلة بتدني العنصر البشري الأسود والتي توافقت مع السياسات الاستعمارية الغربية أثناء نهضتها وقد تكاملت هذه النظريات والمفاهيم العلمية مع المفاهيم الاستعمارية مما دفع بالدول الغربية إلى الترويج لها ودعمها لتجد عبرها الأسباب والمسوغات التي تبرر بها سياستها الاستعمارية تجاه تلك الشعوب وساعدها على ذلك تفوقها الثقافي والاقتصادي والسياسي والعسكري خصوصا الأوربيين الذين تخفى فكرهم الاستعماري وراء الأسطورة والدين والعلم لحجب مراميه فقد كان الشعب الأفريقي في نظر الأوروبي: "قد خلق للاستعباد ولا يسمح فساده المتأصل فيه إلا بإنجاب الغث من الفكر والإبداع". فقد أورد الجنرال هامون في "خطابات إلى كلاكسون" في 1824/1/28 ما ترجمته:

> "أؤمن بقوة أن الرق الأمريكي ليس ذنبا ولكن أمر خاص من الله نفسه عبر موسى أجازه عيسي عبر حواريه ... أنني أؤيد ودون تحفظ أن الرق هو حجر الزاوية في بناء جمهوريتنا".[23]

كتابات الرحالة الأوائل:

الذين زاروا أفريقيا في أوقات مختلفة خصوصا تلك التي قامت خلال الحقبة الوسطى من القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر وفي عصر الاستعمار الإمبريالي حيث اتسمت تلك الكتابات بالمبالغة لإثارة القراء في التعريف بأفريقيا وسكانها. من تلك الكتابات ما أورده جيمس

بروس (James Bruce) في 1790م واصفا رحلته لاكتشاف النيل انه قد شهد وأطعم من وليمة قوامها ثور ظل المدعوون يقطعون من لحمه ويأكلون دون أن يذبح ودون أن ينهمر دمه حتى أتوا عليه بكامله وأن ذلك جرى في غرفة واحدة قدموا فيها القرابين لكل من باخوس وفينوس حتى يقول:

"وإن كان لنا أن نحكم من الأصوات المنبعثة فيبدو أنهم يعتقدون أنه عيب كبير ممارسة الجنس والأكل في صمت".(24)

كما ورد في تلك الكتابات ما ترجمته:

"القارة السوداء .. القارة المجهولة أرض الغابات وحيث الأسود والنمور والوحوش الضارية تتجول في كل مكان والثعابين والحيات الضخمة وملايين القرود التي تتعلق بكل شيء ... أما الناس الأفارقة فكلهم سود مثل سواد الفحم وأغلبهم يأكلون لحوم البشر".(25)

كما ورد: "الذين لا يستطيعون أن يعدوا حتى العدد سبعة".

القوانين العلمية العنصرية:

وهما قانونان الأول ما يعرف بقانون العلم والذي تم بموجبه تصنيف البشر إلى طبقات أعلاها الرجل الأبيض وأدناها الرجل الأسود، ومن الذين ساندوا وروجوا لذلك القانون الفيلسوف الألماني جورج ويلهام هيجل (Goerge Willham) الذي قدم في (1831م) سلسلة محاضرات نالت شهرة واسعة دأب فيها على التأكيد "دون ظل من الشك أن الزنجي يمثل الإنسان الطبيعي في هيئته المتوحشة". الطريف في الأمر أن جورج ويلهام هيجل لم يضع قدماً في أفريقيا بل لم تقع عيناه على زنجي واحد سوى الذين يقومون بالخدمة في بلده.(26)

وفي منتصف القرن الثامن عشر كتب الفيلسوف دايفيد هيوم (David Hume) ما ترجمته أنه لا يشك أن:

"الزنوج أدنى فطرياً من الرجل الأبيض حيث ليس هناك شعب متحضر على الإطلاق من ذلك الجنس حتى ولا فرد شهير بالعلم والخيال لديهم حيث لا يوجد بينهم اختراع

عبقري أو فنون أو علوم كما أضاف: " أن من مصلحة المجتمع أن يظل السود عبيدا".[27]

كذلك يقول لوثر شتوتقارت في مقاله " الانحطاط الطبيعي والموروث للأفارقة" ما ترجمته:

"في حالة الزنوج فنحن في خلاف اساسي ليس فقط عن الرجل الأبيض ولكن أيضاً من ناحية نوعية بشرية أخرى ...".[28]

وفي عام (1860) كتب الكابتن ريتشارد بيرتون Richard Burton بعد وصوله إلى تنجانيقا:

"أن دراسة الزنوج هي دراسة لعقل الإنسان البدائي حيث يبدو أقرب للانحطاط عن الرجل المتحضر أكثر منه متوحشاً يخطو خطوة في اتجاه التقدم، يبدو أنه يتبع إلى واحد من تلك الأعراق الطفولية التي لم تستطيع أبداً أن ترتفع إلى مقام الإنسان".[29]

وفي عام 1860 أيضاً اقترح دين فرار وهو أحد أنصار نظرية التطور أن " يصحح السجل " لتناقض بدائية العنصر الزنجي مع نظرية التطور حيث توقف الزنج عن التطور كما يرى وكنتيجة لذلك قسم البشرية إلى ثلاث فئات: العناصر المتوحشة، العناصر شبه المتمدنة والعناصر المتمدنة وبالطبع لم يكن الأفارقة ضمن الفئتين الأخيرتين.[30]

التعليم

ويتلخص دوره السلبي في تزكية مفهوم تدني العنصر الزنجي خصوصاً بعد تحريم الرق حيث استمر المفهوم في عقول الأفراد ومناهج وسياسة المؤسسات التعليمية وغيرها التي كانت ولازالت تستفيد من الوضع قبل التحريم ويؤكد بلايدن ذلك في قوله:

"في كل الدول الناطقة باللغة الانجليزية ان عقل الطفل الزنجي الذكي يثور ضد الأوصاف المتداولة عن الزنوج في الكتب الأساسية وفي الجغرافيا والرحلات والتاريخ ولكنه وبالرغم من ثورته الفطرية ضد تلك السخريات والتشبيهات الخاطئة فهو مرغم على المضي كلما كبر عبر السنين ان يدرس موادا خبيثة كهذه، وعندما يترك المدرسة يجد نفس الاشياء في الصحف وفي المقابلات وفي القصص وحتى في الأعمال العملية وبعد فترة يستسلم حيث تتراءى له تلك

الاشياء وكأنها هي الاشياء الصحيحة للتحدث او الاحساس بها عن جنسه ويقبل ما رفضته احاسيسه الخام وغير المنحازة فطريا وقاومها بغضب وذلك هو أثر التكرار ".[31]

ويضيف أن تلك الوسائل قد نجحت في ادخال مفهوم تدني العنصر الاسود ورقي الابيض الى الدرجة التي جعلت بعض الزنوج سعيدون لنقلهم من افريقيا.[32]

الأساطير

وهي اقدم واقوى الوسائل التي اشاعت المفاهيم السلبية تجاه اللون الاسود وهي كالرق لصيقة بالاديان فقد اشارت اليها كتب الديانات المذكورة أعلاه وغيرها وهي ما أشار القرآن الكريم بأساطير الأولين.[33] علما بأن ما يقوى الصلة بين الاديان والاسطورة اعتماد بعض المفسرين لكتب الاديان على الاسطورة في تفسير بعض المواقف والقصص الواردة بها.[34]

الجدير بالذكر أن الاساطير التي تحمل المفاهيم السالبة عن اللون الاسود تقتصر على اساطير منطقة الشرق الاوسط اما الاساطير الاغريقية قد رفعت مقامهم إلى مقام " الذين تحج اليهم الآلهة " وانهم ينبوغ كل الحضارات".[35]

والجدير بالذكر ايضا ان من اقوى اسباب تزكية مفهوم تدني العنصر الاسود بالنسبة للابيض هو جهل الافارقة بأصولهم واعتمادهم على الاسطورة في ذلك مما جعلهم مدعاة للسخرية.[36]

الوضع العالمي المعاصر:

حالياً وبالرغم من ان حركة الانثربولوجيا الحديثة قد غيرت من تلك المفاهيم عن طريق الدراسات العلمية وصدور القوانين والتشريعات التي تحارب تلك المفاهيم وتحرم السلوك المرتبط بها الا أن حقيقة الامر تفيد ببقاء تلك المفاهيم راسخة في الذاكرة الشعبية للمجتمعات تؤثر فيها وفي سلوكياتها وما الصراعات التاريخية في العالم بسبب العنصر واللون مثل الصراع في جنوب أفريقيا وصراع الزنوج داخل الولايات المتحدة إلا دليل كاف على ذلك فضلا عن وجود منظمات شرعية قانونا ترعي تلك المفاهيم سرا وعلانية وبصورة مباشرة وغير مباشرة مثل منظمة كلوكلكس كلان المعروفة باسم (K.K.K.).[37]

من ناحية أخرى بناءا على ما ورد تم تقسيم العالم اقتصاديا الى ثلاث مجموعات:

1- مجموعة دول العالم الأول: (أو العالم المتقدم) وهي الدول الرأسمالية: وهي الدول الصناعية أو الجامعة بين النشاطين الزراعي والصناعي وتضم (باستثناء اليابان) الدول الاستعمارية الاوربية والولايات المتحدة.

2- مجموعة دول العالم الثاني: وتتكون في معظمها من الدول الاشتراكية كالصين والاتحاد السوفيتي (سابقا) ومعظم دول شرق اوربا.

3- مجموعة دول العالم الثالث وهي التي يشار إليها تأدبا بالدول النامية أو المجتمعات التقليدية وهي مجموعة الدول الفقيرة اما لضعف انتاجها بسبب عجز الانسان فيها او لأسباب وعوامل طبيعية طارئة أم مستديمة وتضم الدول الأفريقية (باستثناء جنوب افريقيا) ودول الشرق الاوسط (باستثناء اسرائيل) وبعض دول شرق آسيا خصوصاً الدول الاسلامية.

ان الحقيقة التي لامراء فيها ان الدول المتقدمة ورجلها الابيض استخدمت التأثير النفسي كاستراتيجية تشكك بها الشعوب الفقيرة عموماً والسوداء خصوصاً في قدرتها على الابتكار والابداع الفكري المادي وغيره لتقعدها عن التطور والنمو ذاتياً وذلك حفظاً على مصالحها المادية والايدولوجية وقد اعتمدت في ذلك على ازكاء مفهوم التدني الفكري ليس عبر اغراقها بمنجزاتها التقنية بل وقبل ذلك عبر افشاء مفهوم التدني الفكري بسبب العنصر العرقي وفق على ما ورد عاليه.

الوضع في السودان:

حالياً وبالرغم من تمثله العميق للثقافة العربية الذي يتجلى في ادعاء جل اهل شماله بصفاء ونقاء عرقهم العربي الذي يجمعهم بالنسب العباسي الشريف الذي يؤكدونه بعبارة "جعله حر" الان الرأي العالمي الراجح يقول بأن التركيبة العرقية لاهل شمال السودان تتكون من خليط من الاصول العربية المختلفة والافريقية نجمت عن مصاهرات وتزاوج رغبة ورهبة تسرياً واسترقاقا بين الطرفين.

يؤكد ذلك ان التركيبة الشعبية لاهل السودان تتكون من "اولاد العرب والفروخ (انسال الرقيق والسرايا) والحلب".

عن ظاهرة المصاهرة والتسري واثرها على التركيبة الشعبية للمجتمع السوداني يقول الراوي: "قليل الجا بي نسا (نساء)".[38] وذلك في اشارة واضحة الى تزاوج العرب المهاجرين مع القبائل الافريقية كما يقول مؤكداً: "جدودنا أغلب زواجهم خدم".[39] ويقول: "... الشيخ عجيب بسعل في الناس قالهم: عندي اربعة نسوان بنات عرب وستة سراري...".[40] كما يقول: "العبدلاب اتزوجوا السراري. عاد بنمرق منهم وين السراري اذا جدنا الشيخ الامين زاتو امه سرية".[41] ويضيف الراوي: "الشيخ الامين دا معرس اربعين سرية ... الشيخ الامين امه ذاتها سرية". ويقول الراوي أيضاً:

"الشيخ محمد السعدابي ابو الملك نمر جه من هناك لي الشيخ عبد الله ود العقيل وقال: انا جابتني الفراسة بدورك تديني من بيتك – أداه ستنا وتبعها اربعين راس رقيق عشرين فرخ وعشرين فرخة".[42]

نتج عن ذلك التزاوج والتسري عدد من المفاهيم ترسخت في الذاكرة الشعبية يؤمن بها المجتمع وتؤثر في سلوكياته ولكن لا يصرح بها علانية إلا أنها تكشف عن نفسها في ظاهرة طرف يتداولها المجتمع تنم عن تلك المفاهيم. من تلك المفاهيم مفهوم "الأصل" و"العرق" والذين لا يعني الاول إلا ما يعنيه الثاني أي نقاء وصفاء وكرامة وشرف الأصل أي خلوه من أي "عرق" أي أثر لدماء افريقية او حلبية. من تلك المفاهيم ايضا مفهومي "القسمة" و"الشورة" واللذين عادة ما يتخذا ذريعة للاعتذار عن خطبة او زيجة اشتم فيها رائحة ذلك العرق ونجد تأكيدا لذلك في عبارة "امو مني" التي لها وزن اجتماعي اكبر من عبارة "أبوهو منو" عند الاستفسار عن اصل المتقدمين للخطبة والزواج مما ينذر بوجود نفاق اجتماعي قائم على تلك المفاهيم التي بات معلوم ان غايتها النهائية هي حماية للموارد الاقتصادية والمكانة الاجتماعية حالها في ذلك حال الدول الاستعمارية الوارد سابقاً ويؤكد الراوي ذلك في قوله:

"العبيد بيجيبوهم من بلدهم عاد ... هم براهم ما بقولوا ادونا مرة ... في العرس كل زول براهو، لكن أخوان في المحل، سوا في السكن وفي أي حاجة أخوان لكن كل زول بيارث أبوه".[43]

مجلة العلوم والتقانة ـــ

الأهداف الثابتة لها وهي سيطرة المجتمعات الأكثر تقدماً على المجتمعات الأقل منها ويؤكد ذلك الحروب والنزاعات والصراعات الجارية في العالم مثل صراع السود او الملونين ضد البيض في كل امريكا واوربا والصراع التاريخي في جنوب افريقيا وغير ذلك.

اما في السودان فإن الامر لا يختلف كثيرا عن شبيهاته في العالم فقد بات معلوما ان الاسباب العرقية او الدينية التي يروج لها باعتبارها محور الصراع في جنوب السودان ما هي إلا الواجهة التي تتخفى وراءها الاطماع الاقتصادية القديمة الحديثة للرجل الابيض مهما تقرب للأفريقي الاسود بشعارات محاربة الرق وحرية الاديان التي تستغلها الدول الاستعمارية للترويج للحرب وإثارة النعرات ولمنع التقارب بين الجنوب والشمال خصوصا بعد أن وضح بما لا يدع مجالاً للشك رغبة الطرفين في العيش في سلام ووحدة والتي تمثلت في هجرة بعض القبائل الجنوبية نحو الشمال واستقرارها فيها هربا من الحرب مما يعد بحسابات المنطق استفتاء تلقائي نزيه وحر.

الجدير بالذكر المفارقة بين موقف الرجل الابيض المعاصر حيال الاسود حيث صار الأبيض الداعية لحرية الأسود من الرق وعتقه من عبوديته للأديان الوافدة عليه والمناداة بمساواته عرقيا وفكريا متناسبا انه اصل تلك الافتراءات ومروجها تاريخياً والمستفيد فيها في كلا الحالين فمن المعلوم ان المنظمات التبشيرية المسيحية ما فتئت تعمل على زيادة التوتر والخلاف بين الشمال والجنوب وقد حرصت دائماً على حصولها على دعم المواطن الأوربي العادي من خلال إيهامه انها تدافع عن المسيحية وتقاوم المد الاسلامي علما بان هذه المنظمات قد قاومت انصهار الجنوبيين النازحين للشمال من نير الحرب في الجنوب عن طريق انشاء الاندية والخدمات التعليمية والصحية الخاصة بهم في الشمال.[46]

الخاتمة:

1- تناولت الورقة مفهوم اللون عموماً واللونين الاسود والابيض خصوصا وما ترتب عليهما من مفاهيم سلبا وايجابيا في المجتمعات المختلفة موضحة أصول نشأت تلك المفاهيم وتطورها عبر الزمان والمكان وما ترتب عليها من آثار اجتماعية عالميا وإقليميا ومحليا خصوصا فيما يتعلق بالنزاعات والصراعات القائمة بصورة مباشرة وغير مباشرة على هذه المفاهيم وقد ركزت الورقة على إبراز الأدوار المختلفة مساهمة في تلك المفاهيم مستندة على اقتباس النصوص المؤيدة من المصادر المكتوبة خصوصا التاريخ الشفاهي المرصود كذلك تطرح الدرجة مقترحات لحلول تقوم أس أصول المشكلة.

2- أوضحت الورقة ان للحرب بين شمال وجنوب السودان، مثلما لغيرها من العديد من الحروب، سببين أحدهما يستهدف الرأي العام لذا فهو معلن بالرغم من انه ليس السبب الحقيقي إلا أنه وكما اوردت الدراسة، قولة حق اريد بها باطل. اما السبب الثاني وهو الحقيقي إلا أنه غير معلن ولكنه معلوم وهو السبب الاقتصادي وقد اوضحته الدراسة ايضاً.

لذا وبما ان الاسباب العرقية والدينية التي يروج بأنها أس الصراع بين شمال السودان العربي المسلم وجنوبه الأفريقي المسيحي أسباباً غير حقيقية إلا أن المفاهيم المرتبطة بها التي اوضحتها الدراسة حقيقة ايضاً، مما يعني انها ستبقى حجر عثرة أمام أي حل للمشكلة الحقيقية الاستعمارية الاقتصادية ما لم تواجه مواجهة صادقة وجريئة وشجاعة وامينة مع النفس ومع الآخرين آخذين في الاعتبار أن تلك المفاهيم قد ترسخت في الذاكرة الشعبية عبر تراكمات تاريخية مَما يعني انها لن تزول بقرار او بين يوم وليلة وانما تزول فقط عبر نفس الطريقة التي نشأت وتطورت بها.

التوصيات:

بناء على ما ورد تقترح الدراسة وضع وإنفاذ السياسات والاستراتيجيات التي تؤدي وتدعم التداخل الاجتماعي والاقتصادي وذلك بغرض إذابة المفاهيم السالبة خصوصا عبر:

1- مراجعة المناهج الدراسية لمراحل الاساس لازالة ما بها من مما يشير إلى تلك المفاهيم وتضمينها ما ينشيء اجيالاً خالية من رواسب الماضي خصوصاً تدني اللون الأسود وعلو الأبيض.

2- وضع وانفاذ الخطط الاسكانية التي تضمن تمثيلا عادلا وشاملا للتركية العرقية للمجتمع مما يؤدي إلى تداخل وتماذج تلك الفئات على المدى البعيد.

3- التوسع في العليم المهني بحسبانه احد الاسباب التي تناقض المهن التقليدية الممتدة مما يؤدي الى تقليل اثر العائلات الممتدة وبالتالي الحد من المفاهيم الممتدة خصوصا السالب منها.

ان هذا الطرح يأتي متوافقا وموازيا لكل القوانين والتشريعات الداعية للمساواة بين البشر كما يأتي امتداداً للنداء الذي اعلن في افتتاح فعاليات مؤتمر "حوار الألوان " الذي جاء ضمن فعاليات " الحوار الالماني الاسلامي " باكاديمية الانوس للفنون بالتعاون مع جامعة بون في المانيا في نوفمبر 2002م.

مجلة العلوم والتقانة ـــ

مجلة العلوم والتقانة ـــ

23. علي محمد عثمان (2002)، أثر المعتقد في التصميم الشعبي في منطقة السافل بالسودان، رسالة دكتوراه، جامعة الخرطوم، الخرطوم، ص 92-96، 268-314، 477-482. كذلك انظر فعاليات حوار الأديان، الحوار الألماني الإسلامي، بون، الفترة 8-26 نوفمبر 2002

24. واردة في النص. كذلك انظر:

أ) شوقي عبد الحكيم (1978)، الفولكلور والأساطير العربية، الطبعة الأولى، دار ابن خلدون، بيروت، ص 5-7، 11-14، 18، 21-29، 31-37، 39-239.

ب) جرجي زيدان (د ت)، تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الهلال، القاهرة، ص 17-25.

25. المقصود بالإنجيل هنا هو "العهد القديم" كتاب اليهود المقدس الذي تفرعت عنه كتب العهد الجديد. سفر التكوين، الإصحاح التاسع/4. تقول رواية أخرى أن نوحا لعن ابنه حام لأنه جامع امرأته خلال حجهم للبيت في قوله: "اللهم سود وجهه ووجه من عصى ووطئ امرأته"، وعندما ولدت امرأة حام ولدا جاء أسود اللون سموه كوشاً وولد لكوش ابنه الحبشة. للمزيد انظر شوقي عبد الحكيم، نفس المرجع، ص 39-78.

26. شوقي عبد الحكيم، ذكر سابقا، ص 39، 41، 64، 77-78.

27. إليوت سميث، في أحمد محمد علي الحاكم (1995)، هوية السودان الثقافية، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ص 24-27.

28. الإنجيل، سفر التكوين، 1: 12-3، هناك آراء عدة في هذا الأمر. للمزيد انظر أحمد سوسة (1972)، العرب واليهود في التاريخ، العربي للإعلان والنشر، دمشق.

29. قرآن كريم، سورة الحجرات، الآية 13.

30. قرآن كريم، سورة آل عمران، الآية 110.

31. قرآن كريم، سورة النساء، الآية 36. كذلك انظر:

أ- الإمام النووي (1987)، رياض الصالحين، ص 52، 402-405.

ب- أبي زيد القيرواني (د ت)، متن الرسالة، مكتبة القاهرة، ص 119، 128-132.

32. كولين ماكفيدي (1987)، أطلس التاريخ الأفريقي، ترجمة مختار السويفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 5-6. كذلك انظر لينفروبنيوس.

33. محمد فؤاد عبد الباقي (1988)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الجيل بيروت.

34. جرجي زيدان (د ت)، العرب قبل الإسلام، دار الهلال، القاهرة، ص 9-20، 74-80. كذلك انظر: Malirowiski, B. (1945). *Magic, Science And Religion*. New York, p 98.

35. Davidson. (1969). op. cit. pp 26-27.

36. أحمد محمد علي الحاكم (1995)، هوية السودان الثقافية، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ص 26-27. كذلك انظر: علي محمد عثمان، ذكر سابقا.

37. أحمد عبد الرحيم نصر (1969)، تاريخ العبدلاب من خلال رواياتهم السماعية، شعبة أبحاث السودان، جامعة الخرطوم، ص

38. نفس المرجع السابق، ص 17، 30، 32-62.

39. نفس المرجع السابق، ص 30.

40. نفس المرجع السابق، ص 17، 30، 32-62.

41. نفس المرجع السابق، ص 98.

42. نفس المرجع السابق.

43. علي محمد عثمان، ذكر سابقا، ص 268.

44. أحمد عبد الرحيم نصر، ذكر سابقا، ص 17-52.

45. عمار الشيخ محمد (1997)، معالجة الصحافة السودانية لقضية الحرب في جنوب السودان، 1987-1989، صحيفة الميدان والراية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، دار جامعة أفريقيا العالمية للطباعة، ص 68-72.